هجرة الكفاءات العلمية في الجزائر

أ. زيان بخنة
أبو القاسم سعد الله – الجزائر 2-
أ. بن علية إسماعيل
مخبر التمكين الاجتماعي و التنمية المستدامة في البيئة الصحراوية
جامعة الأغواط

ملخص

تُمثل هجرة الأدمغة الوجه الآخر للهجرة السـرية ولكن ما يميزها هو توفر التأشـيرة لدى المُهاجر وهي نتاج لتلك الرغبة الملحة للكفاءات لمغادرة بلدها نحو بلدان أخرى تفتح المجال لها للإبداع والتفوق، لذلك عادة ما نجد طموح الشباب خاصة خريجي الجامعات يتمثل في الحصول على التأشيرة لمواصلة مسارهم في دول أخرى ، وبالتالي تستفيد هذه الأخيرة منهم نتيجة سياسة التهميش والاهمال التي يمارسها البلد الأصلي عليهم اضافة إلى عدم توفر بيئة مناسبة للإبداع.

الكلمات المفتاحية: الهجرة – الكفاءات العلمية – الإبداع.

Abstract:

The brain drain represents the other side of clandestine immigration, but what distinguishes it the most is the availability of the visa for the immigrant , It is the result of that urgent desire of the young competencies to leave their country towards other countries that may open the way for them to be creative and excel. Therefore, we usually find the aspiration of young people, especially university graduates, to obtain a visa to continue their path in other countries, and thus the latter mentioned benefits from them as a result of the policy of marginalization and neglect practiced by the original country on them, adding to all of this lack of an appropriate environment for creativity at the home countries .

- **Key words**: immigration - scientific competencies - creativity .

تمهيد:

تعتبر الهجرة من الظواهر الإنسانية التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، مع ارتباطها في كل فترة زمنية أو مجال مكاني بأسباب تبررها. وقد شهد العالم هجرات جماعية كبرى بسبب المجاعات أو الأوبئة أو الحروب أو عمليات استيطانية... إلى جانب هجرات فردية تقتضيها عادة المصلحة أو الضرورة مثل العمل أو الدراسة أو اللجوء السياسي...

كما شـهدت الجزائر في أواخر عقد الثمانينات وأوائل عقد التسـعينات من القرن الماضـي انفتاحا على الخارج جاء بعد التخلي عن نظام الحزب الواحد، و تبني التعددية الحزبية ونظام السوق بدل نظام الاقتصاد الموجه ، و كان من بين هذه الشـرائح فئة الشـباب خصـوصـا أثناء الإجازات الصـيفية بغرض الفسـحة والسـفر واقتناء بعض الحاجيات، و قد بدأت هذه الظاهرة في الاتسـاع والامتداد بعد الاحتقان السـياسـي وما صـاحبه من أحداث دامية عقب إلغاء المسـار الانتخابي وإعلان حالة الطوارئ وتشـكيل المجلس الأعلى للدولة (العشـرية السـوداء) و بذلك فقدت الجزائر جزء هاما من مواردها البشـرية لا زالوا لحد الآن في المهجر، واليوم يمكننا القول أن نسـبة هجرة الكفاءات في زيادة فهي تسـعى للبحث عن بيئات أخرى تسـمح لها بتحقيق ما تطمح له

وبالتالي الهجرة خارج الوطن ، ولنا أن نتخيل حجم خسائر الموارد البشرية الجزائرية الكفؤة والتي كان لابد من احتضانها ودعمها بدل تجهيزها لدول أخرى للاستثمار فيها.

وانطلاقا مما سبق ماذا نقصد بهجرة الأدمغة في الجزائر ؟ وماهي مبررات هذا الفعل العقلاني ؟

1 – تصنيفات الهجرة :

إن الحديث عن الهجرة، يحتم علينا التعريج على ذكر أهم أصنافها. وسوف نقوم بعرضها وفق الأبعاد التي صنفت على أساسها.

1.1 . الهجرة الداخلية:

وهي التي يتم الانتقال فيها داخل نطاق الدولة نفسها أو الإقليم نفسه دون عبور للحدود الدولية، فهي تحدث داخل الحدود الجغرافية والسياسية للدولة الواحدة، وهذا النوع من الهجرة لا يتطلب تأشيرات أو إذن مسبق للانتقال من منطقة إلى أخرى ، وإنما هو متاح بتوفر الحاجة والإمكانات لذلك. وهي بتعبير آخر انتقال الأفراد والجماعات بصورة دائمة أو مؤقتة داخل الدولة الواحدة من تجمع محلي آخر، حيث تتوفر فيه أسباب الرزق ويكون لفقر بيئتهم المحلية أو اكتظاظها بالسكان وما يتبع ذلك من انخفاض في الأجور أو تفشي البطالة.

ويندرج تحت هذا النوع من الهجرة أربع أنماط وهي:

- الهجرة من المدينة إلى المدينة .
- الهجرة من المدينة إلى الريف .
- الهجرة من الريف إلى الريف .
- الهجرة من الريف إلى المدينة .

والمتتبع لحركات الهجرة الداخلية، سيلاحظ أن النمط الأخير (الهجرة من الريف إلى المدينة) أو ما يصطلح عليه" النزوح الريفي" هو الأكثر شيوعا في الأوساط السكانية، وهذا بسبب افتقار معظم الأرياف إلى المرافق الضرورية أو فرص العمل مقارنة بما هو موجود في المناطق الحضرية ، وهو ما يعرف في علم الاجتماع الحضري بمناطق الطرد والجذب.

والمؤكد أن المكان المقصود (الوصول) سيتحدد بجملة من الاعتبارات تتعلق بمصلحة الفرد مثل تغيير المسكن أو مقر العمل أو الاقتراب من التجمعات السكانية التي تتوفر على مستلزمات العيش مثل المدارس و المستوصفات أو المصانع أو إلى غير ذلك من المرافق الحيوية ، أو حتى البحث عن المناطق الآمنة مثلما حدث في العشرية السوداء في الجزائر أين اضطر العديد من القاطنين في الأرياف إلى الهجرة نحو المدن هروبا من الأوضاع غير الآمنة في الريف.

وكثيرا ما ترتبط الهجرة الداخلية بمصطلح النزوح، الذي غالبا ما يكون إجباريا، ونقصد به "حركة الفرد أو المجموعة من مكان إلى آخر داخل حدود الدولة، ويتم النزوح رغما عن إرادة النازح بسبب مؤثر خارجي مهدد للحياة كالمجاعة أو الحرب أو الجفاف والتصحر أو أي كوارث أخرى تدفع النازح إلى مغادرة موقعه أو التوجه إلى موقع آخر، طمعا في الخلاص من تلك الظروف. وكذلك يعرف النازحون بأنهم الأشخاص أو مجموعات

من الأشـخاص الذين أجبروا على هجر ديارهم أو أماكن إقامتهم المعتادة فجأة أو على غير انتظار بسـبب صراع مسلح أو نزاع داخلي أو أي انتهاكات منتظمة لحقوق الإنسان أو كوارث طبيعية أو من صنع الإنسان وهم لم يعبروا حدود أية دولة معترف بها دوليا. وقد شـهدت الجزائر في التسـعينيات من القرن الماضـي هجرة أو نزوحا جماعيا كما ذكرنا سـابقا لسـكان بعض القرى و المداشـر التي عرفت لا اسـتقرارا أمنيا؛ فترك هؤلاء مساكنهم وأراضيهم خوفا على حياتهم و ذويهم، ليستقروا في مناطق أكثر أمنا.

وقد انجر عن ذلك النزوح، خلو عدة مناطق كانت في ما مضـى عامرة وآهلة، في حين ظهرت إلى الوجود عدة أحياء قصـديرية بداخل وعلى مشـارف المدن على غرار الجزائر العاصـمة. وهو ما يعرف بتريف المدينة اذ نجد مظاهر للعمران الريفي في المدينة وهو ما يُشـوه المظهر الخارجي للمدينة ، وبالمقابل هناك ما يعرف بتمدن الريف وهو اعتماد المظاهر العمرانية الحضـرية في الريف. ويشـهد العالم العديد من حالات النزوح المأساوية مثل ما هو حاصل في دارفور (السودان) أو في الصومال وأفغانستان وعدة دول إفريقية وخصوصا في القرن الافريقي وفي البحيرات الكبرى ودول الساحل الإفريقي ومختلف بؤر التوتر التي تعرف اشتداد النزاع المسلح على خلفيات سياسية أو عرقية أو طائفية دينية، بالإضـافة إلى ضـحايا الفيضـانات أو الجفاف الذين يضطرون إلى النزوح بحثا عن ظروف عيش أفضل لذويهم[1].

2.1 الهجرة الخارجية:

ويطلق عليها أيضـا الهجرة الدولية، وبحسـب الأسـتاذ م. تريبلات M.Tribalat هناك مفهومان أحدهما عام يعني: "الحركة والفعل الآني في الانتقال إلى دولة غير الدولة الأصـل" والآخر خاص يعني "دخول أشـخاص يقيمون لفترة معينة فوق إقليم دولة غير دولتهم."

ويفهم من هذا التعريف أن الهجرة هي عملية انتقال الفرد أو الأفراد من الدولة أو الموطن الأصـلي الذي يحمل جنسيته، إلى موطن جديد سواء في نفس القارة أو إلى غيرها؛ ويكون هذا الدخول بغرض الإقامة هناك لفترة معينة قد تكون مؤقتة أو دائمة؛ وقد اشـترط بعضـهم أن تمتد إلى أكثر من سـنة حتى تخرج عن كونها مجرد رحلة. أما اللجنة الفرنسـية (La Commission de Terminologie et de Néologie du domaine sociale) فتعتبر أن الهجرة الدولية عملية انتقال سـكان من إقليم إلى آخر في زمان ما، وهي تتضـمن من المهاجرين المقيمين لفترة محددة فوق (le stock) وكذا المخزون (les flux) التدفقات إقليم معين.

وخلافا للهجرة الداخلية، فإن الهجرة الدولية تحتاج في الغالب تأشيرات للدخول وتصاريح بالإقامة، وأحيانا خضـوعا للمراقبة لتقييم طالب الإقامة، ويجد المهاجر نفسـه في كثير من الحالات وقد ألصـقت به صـفة المهاجر المؤقت وإن عزم على الإقامة الدائمة. ويركز الأسـتاذ عبد المالك صـياد على " (la double absence) وفي كتابه الغياب المضـاعف الصـفة المؤقتة للهجرة، حيث يرى أن المهاجر هو قوة عمل مؤقتة وينظر إليه كذلك مهما طالت مدة إقامته، وحتى بعد اسـتقرار المهاجر وظهور المهاجرين من الجيل الثاني والثالث الحاصـلين على جنسـية دولة الإقامة واكتسـابهم لثقافتها، لغتها وعاداتها، يحتفظ المهاجر بالصـفة المؤقتة، فدولة الأصـل تنظر للمهاجر على أنه الغائب الذي سـوف يعود، ودولة الإقامة تنظر إليه كقوة عمل مستأجرة لمدة محددة ولا تمنح له الحقوق الكاملة، وهذا هو الاشكال في الجزائر حيث أن سياسـة التهميش و

اللامبالاة التي تطال الباحث الجزائري على وجه الخصـــوص تدفعه إلى الهجرة دون عودة وبالمقابل يُخيل للسـلطة أن هذه الكفاءات عندما تطور من مهاراتها أكثر في الدول المسـتقبلة سـرعان ما تعود إلى البلد الأم لكي يُستفاد من تجربتها .

وتبقى مسـألة الحقوق والحريات الممنوحة للمهاجرين، مرتبطة بقوانين كل دولة ومنها حق اللجوء السـياسـي الذي كثيرا ما يرتبط بالهجرة الخارجية.

إذن خلافا للنزوح الذي تكون فيه الهجرة داخل الحدود الجغرافية للبلد، فإن اللجوء يتم بعبور الحدود الدولية. و"حسبما جاء في قانون تنظيم اللجوء رقم 45 لسنة 1974 م(قوانين معتمدة اللاجئين)، كلمة لاجئ تشمل كل شـخص يترك القطر الذي ينتمي إليه بجنسيته خوفا من الاضـطهاد أو الخطر بسبب العنصـرية أو الدين أو عضـوية جماعة اجتماعية أو سـياسـية أو خوفا من العمليات الحربية أو الاعتداء الخارجي أو الاحتلال أو السيطرة الأجنبية أو الاضـطرابات الداخلية؛ ولا يستطيع أو لا يرغب أحد بسبب ذلك الخوف من الرجوع إلى قطره، أو كان لا جنسـية له ولكنه ترك القطر الذي يقيم فيه عادة بسـبب تلك الأحداث ولا يسـتطيع أو يرغب بسبب الخوف من العودة إليه. ويشمل مصطلح (لاجئ) أيضـا الأطفال الذين لا يصطحبهم كبار أو هم أيتام حرب أو الذين اختفى أولياء أمورهم و يوجدون خارج الأقطار الذين ينتمون إليها[2].

2. هجرة الكفاءات العلمية:

1.2 تعريف هجرة الكفاءات العلمية:

إن هجرة الكفاءات العلمية أصـــبحت تطلق على جميع المهاجرين المدربين تدريبا عاليا من بلدانهم الأصـــلية إلى بلدان أخرى ، أو نزوح حملة الشـــهادات الجامعية والعلمية والتقنية كالأطباء والعلماء والمخترعين...الخ، الذين كان يعول عليهم في فهم التكنولوجيا الحديثة.

ويرتبط هذا المفهوم بمصـطلحات كثيرة أخرى تستعمل للدلالة على هجرة ذوي الكفاءات مثل هجرة العقول أو الأدمغة أو نزيف وإهدار العقول والأدمغة، أو نزوح الكفاءات وهجرة الكفاءات العالية مع بعض الاختلافات في تقدير مسـتوى الكفاءات وطبيعتها أو مدى إيجابية أو سـلبية هذه الظاهرة. إلا أن العبارة الآن أصـبحت تطلق على جميع المهاجرين المدربين تدريبا عاليا من بلدانهم الأصـلية إلى بلدان أخرى. فيما اعتبرت منظمة اليونسـكو أن "هجرة العقول" هي نوع شـاذ من أنواع التبادل العلمي بين الدول يتسـم بالتدفق في اتجاه واحد (ناحية الدول المتقدمة) أو ما يعرف بالنقل العكسـي للتكنولوجيا لأن هجرة العقول هي فعلا نقل مباشـر لأحد أهم عناصر الإنتاج و هو العنصر البشري.

كما يقصـد بهجرة العقول أو الكفاءات نزوح حملة الشـهادات الجامعية العلمية والتقنية والفنية كالأطباء والعلماء والمهندسـين والتكنولوجيين والباحثين والممرضـات الاختصـاصـيات، وكذلك المختصـين في علوم الاقتصـاد والرياضـيات والاجتماع وعام النفس والتربية والتعليم والآداب والفنون والزراعة والكيمياء والجيولوجيا، ويمكن أيضـا أن يشـمل هذا التحديد: الفنانين والشـعراء والكتاب والمؤرخين والسـياسـيين والمحامين وأصـحاب المهارات والمواهب والمخترعين وشـتى الميادين الأخرى، أي أصـحاب الكفاءات والمهارات الجامعية العلمية والتقنية[3].

2.2 السياق التاريخي لهجرة الكفاءات العلمية :

إذا كان مصطلح هجرة الكفاءات أو نزيف الأدمغة (وغيرها من العبارات التي تطلق على هجرة ذوي الشهادات العالية) حديث النشأة، فإن ظاهرة تنقل العلماء وتغيير محلات إقامتهم من بلد إلى آخر ظاهرة قديمة قدم التاريخ نفسه، كما ترجحه معظم الدراسات المهتمة بالموضوع. ومثال ذلك ما حدث في الفترة ما بين 600 ق.م و 300 ق.م عندما هاجر الفلاسفة اليونان من بلادهم قاصدين أثينا، وكانت نتيجة تلك الهجرة ازدهار أثينا ورقي علومها[4].

وفي فترة حكم الإغريق لمصر كذلك، اتجهت الكفاءات العلمية إلى مصر. فقد عمل البطالسة في مصر على إنشاء مراكز البحث المتطورة، وقد تمخض عن ذلك الانجاز عن بناء أكبر مكتبة علمية عرفها العالم، حيث قدر عدد المؤلفات والمخطوطات والمجلدات فيها ما بين - (700/500) ألف كتاب ومجلد، وقد قيل أن أعظم نتاج الإنسانية الفكري في تلك السنوات تم في الإسكندرية[5].

إن تاريخ الحضارة العربية يشير باعتزاز إلى ما قدمه المفكرون العرب وغير العرب في تقدم وازدهار الحضارة الإنسانية بكل مشاربها العلمية والثقافية. وإن كان العرب قد أخذوا عن اليونانيين أسس بدء نهضتهم العلمية فإن الأوروبيين مدينون للحضارة العربية ونهضتها العلمية في بدء نهضتهم.

لكن مع بدايات ضعف الخلافة الإسلامية وسقوط الأندلس التي كانت قطبا علميا مشعا في أوروبا يعج بمختلف الكفاءات العلمية والأدبية، بدأ عصر الانحطاط الحضاري يفرض نفسه على بلدان العالم الإسلامي في حين كانت الدول الأوروبية تدخل شيئا فشيئا في عصر النهضة، تاركة ورائها التخلف الذي كان يطبعها في العصور الوسطى. ومع نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر بلغت عدد الجامعات العلمية المتخصصة في أوروبا إلى ما يقارب 80 جامعة في نهاية القرن الخامس عشر. وبعد قيام الثورة الصناعية وانتشارها نشطت حركة الهجرة بين فئة العلماء والمثقفين وكانت سببا مباشرا في حدوث هجرة عالمية واسعة النطاق شملت معظم بقاع العالم طلبا في الاطلاع والمعرفة والتعلم. ولم تكن هذه الهجرات العلمية تثير احتجاجا أو معارضة ولم تخرج للعلن معضلة هجرة لأدمغة، مع التزايد المطرد للبريطانيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لتدق بريطانيا ناقوس الخطر خوفا على مخزونها الثمين من العلماء والكفاءات العالية، التي نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في استقطابهم واستقطاب الآلاف أمثالهم من مختلف الجنسيات لتصبح بفضل انجازاتهم العلمية والإمكانات الضخمة التي وضعت بين أيديهم القوة الأولى العظمى في العالم[6].

أما ظاهرة "هجرة العقول العربية" فقد بدأت بشكل محدد منذ القرن التاسع عشر وبخاصة في سوريا ولبنان والجزائر. حيث اتجهت هجرة الكفاءات العلمية السورية واللبنانية إلى فرنسا ودول أمريكا اللاتينية، فيما اتجهت الهجرة من الجزائر إلى فرنسا. وفي بداية القرن العشرين ازدادت هذه الهجرة لاسيما خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. وفي السنوات الخمسين الأخيرة هاجر من الوطن العربي ما بين % 25- 50 % من - حجم الكفاءات العربية أغلبهم إلى الدول الأوروبية و الأمريكية. فيما اتجهت بعض الكفاءات إلى البلدان العربية النفطية مطلع السبعينيات من القرن الماضي نتيجة الطفرة النفطية مما سمح بامتصاص عدد معتبر

من الكفاءات العربية، وفتح اتجاها جديدا لهجرة العقول وهي من الجنوب إلى الجنوب بدل من الجنوب إلى الشمال[7].

3. الكفاءات الجزائرية المهاجرة (الدوافع والأسباب):

يمكننا القول أن ظاهرة هجرة الكفاءات ظاهرة جديدة نسبيا في الجزائر خلافا لهجرة العمالة غير الماهرة التي تعود إلى فترات الاحتلال الفرنسي أين عرفت الجزائر عدة موجات من الهجرة القسرية والاختيارية "وكانت أكبر هذه الموجات في الفترة قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى، حيث تم استغلال عمالة دول الشمال الأفريقي للعمل في المصانع والمناجم والعسكرية الفرنسية، وفترة ما بين الحربين التي شهت فيها فرنسا نموا اقتصاديا ملحوظا. وتذكر بعض الدراسات التاريخية أن شمال أفريقيا أمد الدولة الفرنسية بحوالي 175 ألف جندي و 150 ألف عامل في الحرب العالمية الأولى، كان معظمهم من الجزائريين، وبنهاية الحرب عاد معظم العاملين إلى بلادهم ولم يبق سوى حوالي عشرة آلاف عامل من دول الشمال الأفريقي مقيمين بفرنسا، ولكن هذا العدد تزايد إلى حوالي 120 ألف عامل مع منتصف العشرينات نظرا لتزايد الطلب على العمالة في الوقت الذي تدهورت فيه الأحوال الاقتصادية لهذه الدول، خاصة الجزائر، نتيجة السياسات الاستعمارية الفرنسية التي شملت مصادرة بعض الأراضي واتخاذ بعض الإجراءات العقابية ضد المناطق التي ينشط فيها قادة الاستقلال.

وهكذا وتحت طائلة التهجير القسري للعمل أو التجنيد وتحت وطأة الفقر والبطالة اضطر آلاف الجزائريين للهجرة إلى فرنسا. وقد سجل التعداد الفرنسي لعام 1912 حوالي 5000 مهاجر جزائري يعملون بمختلف القطاعات الاقتصادية الفرنسية، ثم انتقل . عددهم إلى 73.000 عام 1936

وقد ساهم بعض هؤلاء في دعم الثورة الجزائرية ماديا، وكونوا جماعات ضاغطة تعرف بالقضية الجزائرية وتعمل لصالحها، وقد مهدت اتفاقية إيفيان لصفحة جديدة في تاريخ الهجرة الجزائرية، حصلت الجزائر بمقتضاها على مساعدات مالية وفنية والحق في الوصول إلى سوق العمل، في مقابل منح فرنسا بعض الامتيازات في استغلال البترول والغاز الطبيعي. ومع تزايد الحاجة إلى العمالة في الدول الغربية وتزايد الأوضاع الاقتصادية في دول المغرب العربي سوءا ، شهدت الفترة مع بداية الستينات حتى منصف السبعينات موجات كبيرة للهجرة ، و تعتبر فرنسا الوجهة المفضلة لدى الطلبة الجزائريين، إذ يمثلون ثالث أكبر جالية طلابية بفرنسا، وذلك بأكثر من 21 ألف طالب وباحث في مختلف المستويات بالجامعات الفرنسية، وقد تم منح 4 آلاف و 500 تأشيرة لفائدة الطلبة الجزائريين لمزاولة . دراستهم بفرنسا في عام 2008 تصريح لوزير خارجية فرنسا.

إلا أنه مع قرار الرئيس الراحل هواري بومدين بتأميم المحروقات ومع أزمة النفط، دخلت أوربا بما فيها فرنسا في أزمة اقتصادية حادة، دفعت بها إلى غلق الأبواب في وجه المهاجرين وتحفيزهم على العودة إلى بلدانهم. وكان لزاما على الجزائر الاستعداد لهجرة "العودة" هذه بالتنسيق مع الجهات الفرنسية، نظرا لعددهم الكبير، وكان لزاما التخطيط لاستثمار أموالهم ومؤهلاتهم التي اكتسبوها في المهجر، وقد سمحت هذه السياسة بعودة أعداد كبيرة من المهاجرين، وسجل بروز الكثير من صعوبات إعادة الإدماج الاجتماعي والمهني لفئات الجيل

الأول والإدماج المدرسي والثقافي لأبنائهم، وانطلاقا من منتصف الثمانينات اختفت تدريجيا مسألة العودة في البرامج الحكومية، وحلت محلها فكرة تعبئة المهاجرين وإشراكهم في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الوقت الذي برزت ظاهرة عدم عودة الطلبة والأطر المرسلة إلى الخارج لمتابعة التكوين، في موازاة تزايد هجرة الكفاءات والأطر والأطباء والطلبة، خاصة خلال التسعينات التي شهدت تدهور الوضع الأمني، وما نجم عنه من اغتيال المثقفين والصحفيين والفنانين وتضييق الخناق عليهم، وهو ما دفعهم إلى الفرار للخارج إلا أن تحسن الأوضاع الأمنية، وإن خفف من وتيرة "نزيف الأدمغة الجزائرية"، إلا أنه لم يوقفها إذ ما زالت الجزائر تعاني إلى اليوم استمرار هجرة كفاءاتها إلى الخارج بأعداد معتبرة وإلى وجهات مختلفة أهمها منطقة منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية.

من جهة أخرى فان عدم تنافسية التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر جسد أكثر فكرة هجرة الأدمغة ، فقد كانت الجزائر و إلى بداية سنوات 1980 تمتلك نظام بحث و تعليم متطور مقارنة ببقية البلدان العربية. المفارقة هي أن الجزائر من بين كل دول شرق و جنوب المتوسط هي التي بذلت من جهة أكثر الجهود و الوسائل للتصنيع و التجهيز، و لكنها تستمر في تراكم تأخرات معتبرة في تطوير تكنولوجيات جديدة . و هذه أحد العوامل التي ساهمت في ذهاب أحسن أخصائي الإعلام الآلي خاصة صوب كندا و دول الخليج العربي. مثال تكنولوجيا المعلومات و ظاهر جدا إنه أداة مصاحبة للنمو بصفة عامة و للبحث العلمي (NTIC) الاتصالات بصفة خاصة، اذ أن التأخر المعتبر الذي سجلته الجزائر في التحديث التكنولوجي لجهاز الإنتاج و النسيج الصناعي الذي أصبح متجاوزا لقلة الاستثمار و التأهيل و العصرنة هو أكثر من مقلق.. ومن جهة أخرى صعوبة الوصول إلى مخزون المعارف و التقنيات المتوفرة في السوق العالمية للمعرفة لا يمكنها بأي حال السماح بتبادلات مثمرة و مفيدة مع "الشتات" الراغبين في ربط الاتصال بالباحثين المحليين[8]. و في هذا إهدار للطاقات و الكفاءات الجزائرية الداخلية و الخارجية منها، و هي تعزز اتجاه الفئة الأولى على الهجرة و الثانية على عدم العودة في غياب البيئة المناسبة للبحث و التطوير و من ذلك كذلك:

- صعوبة الوصول للمعلومة ، صعوبة نشر الأعمال ، غياب تقييم صناعي و تجاري لنتائج البحث. واللاستقرار في فرق البحث.
- خضوع أعضاء البحث لوصاية الدولة في منح القروض و الموافقة على الميزانية. إذ يجب معرفة أنه لا يوجد في الجزائر مؤسسة بحث خاصة(ماعدا إذا استثنينا مكاتب الدراسات التي هدفها الأول البحث عن الربح الفوري).

هذا في الوقت الذي تخصص فيه الدول الغربية ميزانيات ضخمة للبحث العلمي و تحرص على تقديم الإمكانات اللازمة لمشاريع البحث، و الحوافز للباحثين، و تستثمر فيما لديها من عقول بالموازاة مع استقطاب العقول المتميزة من الدول الأخرى[9].

4. انعكاسات هجرة الكفاءات الجزائرية :

على الرغم من الأعداد الهائلة التي تتخرج كل سنة من مختلف الجامعات الجزائرية، إلا إنه لا يمكن القول أن الجزائر لا تعاني من أزمة "نزيف للأدمغة أو الكفاءات"، لأن المسألة لا تتعلق فقط بأعداد الكفاءات المهاجرة

و لكن بنوعيتها بدرجة أولى. فكلما كانت ذات كفاءة عالية و تخصصات نادرة كلما كانت الخسارة أكبر و التعويض عنها أصعب. مع أن بعض الدراسات تثمن تأثيرات هجرة الكفاءات الجزائرية
على أساس التحويلات المالية التي يتم إرسالها إلى الجزائر مما يساهم في تحسين المستوى المعيشي لأسر المهاجرين، أو عن طريق الاستثمارات و المشاريع التي يتم إنشاؤها في الجزائر و تساهم في التنمية و التشغيل. أو ترى في هجرة هؤلاء المتخرجين من الجامعة تخفيفا للضغط الذي يمارس على مستوى التشغيل مع ارتفاع الطلب على العمل مقابل تواضع العرض. فضلا على ما قد تمثله العلوم و المعارف و التقنيات المكتسبة في الدول المتقدمة من فرص هائلة لنقل التكنولوجيا إذا ما تم استغلالها جيدا. و يصعب تحديد حجم الخسائر التي تتكبدها الجزائر في رأس مالها البشري من خريجي الجامعة الجزائرية على مختلف مستوياتهم ، لذلك نرى أن الجزائر اليوم تعاني نزيفا للأدمغة وهو مايستدعي اعادة النظر جذريا في طرق ادماج هذه الفئة الهامة وفي كل القطاعات خاصة قطاع الصحة، فالمؤسف في الأمر أن المنظومة الصحية الجزائرية تعاني نقصا في كثير من الاختصاصات وفي المختصين بل هناك مؤسسات تحوي على أحدث الأجهزة الا أن غياب مُسير هذه الأجهزة هو مربط الفرس خاصة في المناطق الداخلية و الجنوبية. و نفس الأمر بالنسبة للاقتصاد الوطني الذي يجد صعوبة في الإقلاع الفعلي و كذا تباطؤا في وتيرة التنمية. و في الوقت الذي تحصد فيه البلدان المتقدمة ما تزرعه الجزائر، تلجأ هذه الأخيرة أمام نقص المختصين إلى جلب الكفاءات الأجنبية من الخارج للاستعانة بهم، مقابل أجور خيالية مقارنة بأجور نظرائهم الجزائريين، و في هذا تكريس للتبعية و لكن كذلك استفزاز للكفاءات الجزائرية التي يمكن أن يقودها هذا التمييز في حقهم و الاستهانة بقدراتهم إلى الهجرة[10]. ولنا أن نتخيل الرغبة الملحة عند العديد من الاطارات الموجودة حاليا في الجزائر والتي تنتظر الفرص لمغادرة بلدها بدل اهدار الوقت في انتظار لفتة من الوزارات الوصية لتثمين مشاريعهم وأفكارهم فنجد مثلا استطلاعا للرأي كانت قد قامت به مجموعة بوسطن للاستشارات سنة 2018 حول مدى استعداد الجزائريين لمغادرة بلدهم في حالة وجود فرص لذلك ، لتكون النتيجة أن ما يقارب 84 بالمائة من الجزائريين على استعداد لمغادرة بلدهم للحصول على وظائف في بلدان أخرى تُقدر المورد البشري وتُنصفه.

لكن وبالمقابل هناك من يعطي قراءة ايجابية لهجرة الأدمغة ، فالكفاءات الجزائرية المهاجرة إذا ما وجدت الرعاية والإرادة السياسية من دول المنشأ فإنها ستتحول إلى نقاط قوة لبلدانها وشعوبها الأصلية سيتحولون إلى سفراء لهذه الشعوب يدافعون عن مصالحها من داخل منظومة الدول المتقدمة نفسها.

خاتمة :

يتضح جليا مما سبق بأن الهجرة الخارجية لا تحدث من فراغ ولا تحدث في فراغ ، بل تحكمها عوامل وظروف سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو ثقافية ، فهي نتاج تراكمات تدفع المهاجر لتغليب رغبته في تغيير البيئة لتحقيق طموحاته وعدم دفنها في الوسط الذي لا يُقدم أبسط شروط تجسيد الإبداع والابتكار وفي كل الميادين .

والواضـــح أيضـــا أن الرغبة في هذه الهجرة ترتبط ارتباطا وثيقا بتلك الظروف والعوامل ســلبا و إيجابا، فكلما تحسنت حال هذه الظروف كلما أصبحت أكثر تشجيعا للأفراد على الاستقرار والشعور بالرضا فتتحول حينئذ إلى عوامل جذب لهم. وعلى العكس من ذلك إذا ســـاءت أحوال هذه الظروف فإنها تصـــبح عوامل تحفيز لهم على التفكير في هجرة موطنهم الأصلي إلى موطن آخر يرونه أحسن وأفضل فيكون بذلك سلوكهم هذا كرد فعل إزاء هذه الأوضـاع ، فتصـبح تلك الظروف والعوامل قوة طرد لهم تولد لديهم الرغبة العارمة في الهجرة خارج الوطن .

الهوامش:

[1] عبد القادر القصير، **الهجرة من الريف إلى المدن**، دار النهضة العربية، بيروت، 1996، ص 128.

[2] بن زيوش غالية ، **الهجرة و التعاون الأورو متوسطي منذ منتصف السبعينات**، رسالة ماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 2005، ص 11

[3] محمود عبد الفضل، **انتقال العمالة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1983.ص .112

[4] علي سعيد اسماعيل وآخرون، **التعليم الجامعي في الوطن العربي**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1987، ص 17

[5] عبد اللاوي حسين:**(عودة الكفاءات الجزائرية إلى بلدها الأصلي)**،مجلة إضافات ،الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، العدد 11 ، 2011 ، ص 75.

[6] بدراني عبد الناصر. **هجرة الكفاءات العربية. الأسباب و النتائج (العراق نموذجا)**، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية، الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك، 2009 ، ص 73.

[7] علي سعيد اسماعيل وآخرون، مرجع سابق، ص 16.

[8] زيان محمد:**(الشباب الجزائري والهجرة غير الشرعية نحو أوروبا)**، الحوار المتمدن، العدد 2125 – 2007/10/12 ، أنظر http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=117871&nm=1

[9] عبد اللاوي حسين ، مرجع سابق ، ص 124.

[10] عبد اللاوي حسين ،مرجع سابق ، ص 126.